المحاضرة التاسعة: التاريخ السياسي للجزائر في ظل الحكم العثماني

من المعلوم عند العام والخاص أن الدولة العثمانية وقفت كسور منيع في طريق التوسع الأوروبي في العالم الاسلامي طوال أربعة قرون من الزمن، كما عملت الدولة العثمانية على توحيد صفوف المسلمين في العديد من الدول، هذا ما جعل الدول الغربية تتخوف من وحدة المسلمين وتكاتُفهم من جهة وتحقد على الدولة العثمانية من جهة أخرى، ولهذا يعتبر العثمانيون في نظر الدول العربية بمثابة " أبطال ساعَدُوا الدول العربية الضعيفة، مقارنة بأوروبا على التخلص من هيمنة الأوروبيين وتفضيلهم على الغزاة المحتلين لأراضيهم".

أ-دوافع التواجد العثماني بالجزائر:

لم يكن ليوجد الأتراك في الجزائر لولا غزو الاسبان لها و لم يتوصل الإسبان إلى احتلال بعض أجزائها إلا باستغلال الضعف والانحطاط الذي عرفته الجزائر في أواخر عهد الدولة الزيانية، فدخل أمراؤها في صراع على العرش، و لم تعد تملك هذه الدولة من النفوذ إلا تلمسان و بعض أجزاء المناطق العربية، فعجزت عن مقاومة الغزاة و أجبرت على عقد الصلح مع الاسبان سنة 1512 م اعترفت فيه باستيلاء الاسبان على عدة موانئ في غرب الجزائر.

لقد احتل الإسبان المرسى الكبير في شهر أكتوبر 1505م، و مدينة وهران في شهر ماي 1509، وبجاية يوم 6 جانفي 1510، و مستغانم 1511 م، كما فرض الإسبان الجزية (الضرائب) على سكان هذه المدن الساحلية وإجبارهم على تمويل حروبهم الاستعمارية.

وأمام هذا الوضع المزري و الصعب الذي كانت تمر به الجزائر في بداية القرن السادس عشر، لم يجد سكان الجزائر وسيلة إلا الاستنجاد بالأخوين عروج و خير الدين لإنقاذهم من الاحتلال الأوروبي لمدنهم و ذلك بالالتجاء الى تركيا القوية والقادرة على تزويد المحاربين الجزائريين بالذخيرة و الرجال الذين يمكنهم صد الطغاة الأوروبيين. و بفضل تلك المساعدة شعر أبناء الجزائر بدرجة عالية من الأمان والاطمئنان في ظل الدولة العثمانية القوية، و انطلاقا من هذه الحقائق، **فإن العثمانيين يعتبرون منقذون وليسوا مستعمرون.**

و من هذا المنطلق نخلص إلى أن لظهور الأتراك بالجزائر كان له دور فعال في انقاذ هذا البلد من احتلال اسباني واقع لا محالة، لذلك قبل السكان بالانضواء تحت لواء الخلافة العثمانية باسطنبول، و ما من شك أن رابطة الدين هي التي كانت الدافع الرئيسي للاستنجاد بالأخوين عروج و خير الذين و

تلبيتهما النداء، خاصة وأن الصراع آنذاك كان على أشده بين المسلمين و الصليبيين – كما سبق الذكر، وعليه فقد بذل الأتراك العثمانيون جهودا تحفظ لهم في التاريخ من أجل حماية الجزائر من التحديات الاستعمارية طوال ثلاثة قرون.

ب- خير الدين و عروج ينقذان الجزائر من الهيمنة الأوربية:

بعد أن انهكتهما الحروب الداخلية و الخارجية في القرن الخامس عشر خاصة بعد نكبة الاندلس و انهيار الحضارة الاسلامية فيها على يد الإسبان و البرتغاليين استنجدت الجزائر بالآخوين بربروس•) العثمانيين) لوضع حد للقرصنة الأوربية حيث برز اسم الأخوين في مطلع القرن السادس عشر انطلاقا من نضالهما في انقاذ بواخر المسلمين الفارين من الاضطهاد الإسباني حيث ظهرا كقوة مضادة للقرصنة الأوربية حيث استنجد بهما سكان مدينة بجاية عام 1512 م لطرد الجيش الإسباني من بجاية ثم إلى مدينة تلمسان للقضاء على السلطان أبي حمو الذي تحالف مع الإسبان و هو ما كلف عروج حياته، حيث استشهد في إحدى المعارك ضد الإسبان و الجيش الإسباني سنة 1518 م حيث جاء طلب سكان مدينة تلمسان بعد النجاح الذي حققه الاخوان ضد الحملة الاسبانية لاحتلال مدينة الجزائر ثم تمكن خير الدين من بسط نفوذه و أصبح رئيسا للدولة مرتبطا بالدولة العثمانية و متحالفا معها ضد الإسبان .

ج- الحاق الجزائر بالخلافة العثمانية:

إن استشهاد عروج و جنوده عام 1518 عن سن يناهز 45 سنة إثر معركة دارت بينه و بين الاسبان خارج تلمسان و بالتحديد بواد المالح بنواحي عين تموشننت، جعل خير الدين الذي كان إثرها متواجدا بمدينة الجزائر يعلن تبعيته للسلطان العثماني، حيث أدرك أنه لا يستطيع لوحده الاحتفاظ بالجزائر و أن يحارب الاسبان بقواته فقط، و لذلك ربط مصيره بمصير الامبراطورية العثمانية التي برزت كأكبر دولة إسلامية تتوجه نحو حماية المسلمين في كل مكان.

و ذلك بعد أن اقنع أعيان مدينة الجزائر بخطورة الوضع في الجزائر، و أهمية انضمام بلدهم إلى السلطة العثمانية التي تزود جيشه بالسلاح و المؤونة و الدعم السياسي لمواجهة الهجمات الاسبانية في حوض البحر الأبيض المتوسط، و بهذا الأسلوب تمكن خير الدين من تقوية جيشه و بسط نفوذه و ضمن سيطرته على الدوام، بعد أن أصبح ممثلا للسلطان التركي في أرض الجزائر.

وبعد أن قدم خير الدين بربروس الولاء لسلطان العثماني سليم الأول قبل هذا الأخير عرضه قبولا حسنا وأرسل له 2000 جندي مسلحين بالبنادق وعددا من رجال المدفعية مع مدفعيتهم وعددا من

المتطوعين، و لم يكتفي السلطان العثماني بذلك، بل وجه رسائل إلى حكام تونس و تلمسان يحذرهم من الاعتداء على حدود إمارة الجزائر.

و بتعيين خير الدين كأول حاكم تركي على الجزائر من طرف السلطان العثماني صار يلقب ب " بايلر باي " (أمير الأمراء)، و تحول من مجرد أمير البحر إلى رئيس دولة مرتبطة بالإمبراطورية العثمانية و متحالفة معها ضد اسبانيا زعيمة العالم المسيحي. وقوة يحسب لها حساب كبير على المستوى الدولي.

الجدير بالذكر أن تحالف خير الدين مع العثمانيين مكنه من أن يغير مجرى الأمور بشمال افريقيا، و يوحد هذه البلاد بحيث تمكنت القوات الجزائرية والعثمانية من إخراج الاسبانيين من تونس و طرابلس في القرن السادس عشر (16)، كما ساعد خير الدين فرنسا على تحرير ميناء نيس من القوات الإسبانية المرابطة به و ذلك سنة 1543 م.

كما استطاع خير الدين أن ينتصر على الاسبانيين في هجومهم العنيف على مدينة الجزائر سنة 1519 ، و كذلك طرد الاسبان من برج الفنار في شهر ماي 1529م. و بالمقابل تمكن من القضاء على الثورات التي كانت تدبر ضده من الداخل، و نجح في الاستيلاء على المدن المتبقية من الجزائر: (القل و قسنطينة عام 1521، عنابة 1522 و الحضنة والقبائل ومتيجة عام 1525 م، واسترجع مدينة الجزائر من يد سلطان قبائل كوكو بن القاضي عام 1526.

يذكر أن السلطان العثماني سليمان الأول (القانوني) استدعى خير الدين عام 1535 إلى القسطنطينية و عينه قائدا عاما للأسطول البحري التركي، و وضع تحت تصرفه البوارج الحربية والمعدات العسكرية التي كسرت شوكة الاسبان في تونس وطرابلس والجزائر، و بقي في هذا المنصب حتى وافته المنية عام 1546 عن سن يناهز 80 سنة. و في الوقت الذي تغيب فيه خير الدين عن أرض الجزائر و انشغاله بتنظيم البحرية التركية قام بتعيين ابنه حسن باشا قائدا للجزائر.